جهود العلماء المسلمين في دعم مؤسسات المجتمع المدني في عصر الحروب الصليبية (490–690هـ/1096–1391م)

د. سلطان جبر سلطان(*)

يعُد المجتمع المدني [1] ومؤسساته من المصطلحات الحديثة التي ظهرت أواخر القرن العشرين. اما جذور المجتمع المدني فقد أرجعها أحد الباحثين المحدثين[2] إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر في أوربا، حيث وجد المجتمع المدني تعبيره السياسي والقانوني الأول في إعلان حقوق الإنسان والمواطن في أعقاب الثورة الفرنسية[3] في حين يرى باحث آخر[4] أن المجتمع المدني ظهر كرد فعل على سلطة الحزب الواحد في الدولة الشيوعية بإيجاد مرجعية اجتماعية خارج الدولة.

وعلى الرغم من حداثة مصطلح المجتمع المدني وبيئة الغربية، إلا ان ذلك لا يعني بالضرورة انه ليس له جذوره التاريخية من حيث الفكرة أو المضمون، من

(*) قسم التاريخ - كلية الآداب / جامعة الموصل.

(1) يُعرف المجتمع المدني على انه رابطة اختيارية يدخلها الأفراد طواعية، إيماننا منهم بقدرتها على حماية مصالحهم والتعبير عنها. وهي تعكس في دلالتها استقلال المجتمع عن الدولة عبر مؤسسات ومنظمات مستقلة أو شبه مستقلة أو وسطية. أحمد شكر الصبيحي: مستقبل المجتمع المدني في الوطن العربي، (بيروت ـ 2000) ص 24، ص 28.

(2) الصبيحي: مستقبل المجتمع المدني، ص 11.

(3) عزمي بشارة: المجتمع المدني دراسة نقدية، ط2، (بيروت ـ 2000) ص 43.

(4) الصبيحي: مستقبل، ص 11.

خلال بعض الممارسات السلوكية في مجتمعنا الشرقي. وعليه فإن ظاهرة المجتمع المدني تُعد نسبية وفقا للأطوار التاريخية. فهي ليست حكراً على المجتمع الغربي الرأسمالي مثل غيرها من الظواهر المفاهيم الإنسانية الأخرى. تلك الظاهرة عرفتها خبرات مجتمعات ودول عديدة، لكن الفارق يكمن في درجة نضج المجتمع المدني وتطوره للحالتين[5].

فلو حاولنا تلمس بعض من ممارسات المجتمع المدني ومؤسساته في تاريخنا الإسلامي لوجدنا ان هناك إبداع تكوينات قد لا تتخذ الأبنية والهياكل نفسها [6] للمفهوم المتعارف عليه في الوقت الحاضر إلا اننا نجد في تاريخنا الإسلامي ما يوازي مفهوم المجتمع المدني الحديث.

إن مفهوم المجتمع الحديث من حيث دلالة استقلالية المجتمع عن الدولة عبر مؤسسات ومنظمات مستقلة أو شبه مستقلة أو وسطية وهو ما يمكن ان يسمى اصطلاحا المجتمع الأهلية في التاريخ الاجتماعي والسياسي [7] مقابل صيغة أهل الدولة التي تتردد في مقدمة ابن خلدون بصيغة أهل العصبة وأهل الحرف والصنائع والطرق والفرق[8].

وقد شكلت الأعمال الخيرية بصيغتها الفردية في المجتمع الإسلامي أحد المرتكزات المهمة لتدعيم المؤسسات المجتمع الإسلامي وبنائها التي قامت عليها الحضارة العربية الإسلامية، بمعطياتها المادية والمعنوية وعلى امتداد مراحلها المختلفة، ولعل الذي يميز تلك الأعمال ان أصحابه ساهموا وبشكل مباشر في

---

(5) الصبيحي: مستقبل، ص 28.

(6) الصبيحي: مستقبل، ص 28.

(7) الصبيحي: مستقبل، ص 28.

(8) ينظر ابن خلدون. المقدمة، (بيروت، د.ن)، ص 313 ـ ص 321.

تمويل نشاطات المؤسسات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي أقاموها بالأموال والعقارات التي تؤمن لها الموارد المالية وبشكل منتظم ودائمي دون الاعتماد على الدعم المباشر من قبل الدولة أو السلطة السياسية الأمر الذي جعل معظم تلك المؤسسات في منأى عن الاهتزازات السياسية التي تتعرض لها الدول والحكومات الإسلامية بين الحين والآخر.

وارتأينا في هذا البحث تسليط الضوء على مساهمات العلماء المسلمين في ميدان رفد المؤسسات المدنية بأسباب البقاء والديمومة للعمل الخيري كون هذه الفئة اكثر وعيا في فهم طبيعة التحديات التي تتعرض لها الأمة والمتمثلة بالغزو الصليبي لبلاد الشام ومصر. وهي بذلك اقدر من غيرها على تشخيص متطلبات المرحلة الراهنة من خلال المساهمة بإنشاء المؤسسات التعبدية والثقافية التي من شأنها تأصيل الذات العقائدية [9] للامة في صراع الوجود مع الغرب.

ويعد الوقف [10] من أجل الأعمال الخيرية التي ساهمت في تأكيد خصوصية المؤسسات المدنية والذي حرص العلماء على أدائه لاعتبارات دنيوية وأخروية عملا بالآية الكريمة (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ

(9) عماد الدين خليل: نور الدين محمود الرجل والتجربة، ط1، (بيروت، 1980)، ص 129 ـ 158.

(10) الوقف يعني: الحبس، وهو مصدر كأن تقول وقفت الأرض وغيرها، والوقف نوعان ذري وخيري وهو نوع من أنواع الصدقات الجارية الطوعية التي لا تخضع للإجبار والإكراه عليها فهي فعل خير وثواب حض الشارع على فعلها. ابن منظور: جمال الدين، لسان العرب، (بيروت، 1950)، 276/11-277؛ الطائي: فوزي أمين، الخدمات الوقتية في العراق وبلاد الشام في القرنين السادس والسابع الهجريين ـ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، أطروحة دكتوراه مقدمة إلى كلية الآداب (جامعة الموصل، 1997)، ص 16.

النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ) [11]. وتأكيداً للنهج النبوي الشريف "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له"[12].

وقد شغلت المساجد وبقية المؤسسات التعبدية الأخرى مثل الأربطة [13] والزوايا، حيزا كبيرا من تفكير العلماء المسلمين، فشرعوا في بنائها من مالهم الخاص، وأوقفوا لها الأموال اللازمة لتدبير شؤونها بعظم الثواب الذي اعد لهم في الآخرة كما جاء في الحديث الشريف: "من بنى لله مسجدا بنى الله له مثله في الجنة"[14].

فأنشئت في بلاد الشام ومصر العشرات من المساجد من قبل العلماء، ولعل من أبرزهم الشيخ أبا بركات الخضر بن شبل (ت 512هـ/ 1166م) خطيب دمشق حيث بنى مسجدا في رحبة الخاطب بدمشق وعمل له منارة من خشب، وجعل له إماماً ومؤذنا[15].والقاضي ابن أنجح [16] الذي أوقف المسجد الذي في سوق الطير

---

(11) سورة الرعد: الآية 17.

(12) الرباط لغة هو ما يربط بالشيء واصطلاحا فهو الإقامة على جهاد العدو بالحرب، ويعني أيضا المكان الذي يجتمع فيه الصوفية للتعبد والابتعاد عن مباهج الحياة. ابن منظور، جمال الدين، لسان العرب، (بيروت، 1955م)، 427/2، مصطفى جواد "الربط" مجلة سومر، المجلد العاشر، 1945، 2/ 221-224.

(13) ابن عبدالهادي: يوسف، ثمار المقاصد في ذكر المساجد، (بيروت، 1943)، 166/3.

(14) ابن عبدالهادي: يوسف، ثمار المقاصد في ذكر المساجد، (بيروت، 1943)، 3/ 166.

(15) ابن عساكر: أبو القاسم، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: صلاح الدين المنجد، (دمشق، 1951م)، م2 /70؛ ابن عبدالهادي: ثمار، ص67.

(16) لم اعثر على ترجمة له.

وشق له قناة وجعل له إماماً[17] وبنى الشيخ المقرئ أبو محمد هبة الله بن محمد بن طاؤوس (ت 536هـ/ 1141م) خطيب الجامع الأموي بدمشق مسجدا على مقربة من نهر يزيد إلى الغرب من المقبرة[18]. والفقيه إبراهيم بن المنجا (ت 599هـ/1202م) والذي بنى هو الآخر مسجدا على مقربة من نهر يزيد [19] وكذلك بنى الفقيه قطب الدين محمود بن محمد بن مسعود النيسابوري (ت 578هـ/ 1182م) بنى مسجدا بالقرب من مقبرة طاحونة الميدان، أوقف كتبه لخزانة المسجد[20].

وشرع الفقيه أبو عمر محمد بن قدامى المقدسي (ت 607هـ/ 1210م) ببناء المسجد الجامع في سفح قاسيون بدمشق. فلما بلغ البناء قامة رجل نفذ المال الذي بحوزته. وأرسل إليه الملك المظفر كوكبري [21] صاحب اربل، مالا كثيرا فأتم بناءه ثم بعث إليه ألف دينار ليشق للمسجد الجامع قناة، لكن الملك المعظم [22] بن الملك العادل صاحب دمشق، اعترض لكون القناة

(17) ابن عساكر: تاريخ، م68/2؛ ابن عبدالهادي: ثمار، ص 83.

(18) ابن عساكر: تاريخ، م85/2؛ ابن عبدالهادي: ثمار، ص 113-114.

(19) ابن عساكر: تاريخ، م86/2؛ ابن عبدالهادي: ثمار، ص 116.

(20) السبكي: تاج الدين، طبقات الشافعية الكبرى، (بيروت، 1966)، 309/4-310.

(21) أبو سعيد كوكبري بن أبي الحسن علي بن بكتكين ولد بالموصل سنة 549هـ تولى اربل بعد وفاة والده وكان عمره أربع عشرة سنة عرف عنه كل الخير وله مشاركات ضد الصليبين توفي سنة 614هـ ودفن بقلعة اربيل، ابن خلكان شمس الدين، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسانه عباس، (بيروت، 1977)، 113 – 120.

(22) عيسى بن أبي بكر بن أيوب ولد بالقاهرة سنة 576هـ ونشأ في الشام على مذهب أبي حنيفة ثم اصبح أميرا على دمشق بعد وفاة والده سنة 615هـ، عرف بمحبته للعلماء وكان كثير الجهاد ضد الصليبيين توفي ←

سوف تخترق قبور المسلمين، فاكتفي ابن قدامى بحفر بئر وجعل له بغلا يدور لتوفير المياه [23]. في حين ان القاضي فتح الدين محمد بن عبدالله بن عبدالظاهر (ت 690هـ/ 1291م) بنى في مصر جامعاً في القرافة الصغرى في موضع يعرف بالخندق قبالة ضريح الفقيه الليث بن سعد. فأقيمت أول خطبة فيه يوم الرابع والعشرين من صفر سنة 683هـ/ 1284م فكان يوما مشهودا لكثرة من حضره من الأعيان والعامة[24].

ومن المؤسسات المدنية الأخرى ذات الصفة التعبدية والتي كان للعلماء إسهامات مهمة فيها، الأربطة والزوايا فقد بنى الشيخ أبو البيان محمد بن محفوظ القرشي (ت 551هـ/ 1156م) رباطا بدمشق [25] وكذلك بنى الشيخ ارسلان الدمشقي [26] رباطا آخر داخل الباب الشرقي بدمشق [27] وأوقف القاضي أبو الأشبال بن أبي المحاسن بن مهلب البهنسي على الزوايا التي بالجامع العتيق بمصر [28].

← سنة 624هـ. سبط ابن الجوزي: مراة الزمان في تاريخ الأعيان، (الدكن، 1951)، م8، ح2/44-649، الحنبلي: احمد شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق: ناظم رشيد، (بغداد، 1978)، ص 276-277.

(23) ابن كثير إسماعيل، البداية والنهاية في التاريخ، ط2، (بيروت، 1977)، 32/13؛ ابن العماد: أبو الفلاح، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (بيروت، 1970)، 334/4.

(24) المقريزي: تقي الدين، المواعض والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (بيروت، د.ت) م3/ 284- 285.

(25) احمد الحرون: الشيخ ارسلان الدمشقي، (دمشق، 1965)، ص78.

(26) الشيخ ارسلان بن يعقوب الدمشقي، العالم الفيلسوف الصوفي، والتقي الزاهد الملقب بـ(حامي الشام) توفي سنة 541 بدمشق الحرون أحمد، الشيخ ارسلان الدمشقي، تحقيق: عزة حصرية، (دمشق، 1965)، ص5.

(27) الحارون، المرجع والصفحة نفسها.

(28) النذري: زكي الدين، التكملة لوفيات النقلة، تحقيق: بشار عواد معروف، (النجف، 1969)، م 424/5.

وللعلم والتعلم نصيب وافر في ممارسات العلماء السلوكية والحرص على توفير أسبابه المادية والمعنوية مثل المدارس ودور الحديث تلك المؤسسات المدنية والثقافية التي لم تألفها البلاد من قبل. فقد شهدت بلاد الشام ومصر منذ أواخر القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، نهضة مدرسية كان لها انعكاساتها العلمية والفكرية لعموم المجتمع ولعل التحديات التي تعرضت لها الأمة الإسلامية من قبل الغرب والمتمثلة بالحروب الصليبية ألقت على كاهل العلماء عبئ النهوض بالأمة من حال الوهن وإزالة الأفكار المريبة والهدامة التي طلت البنية الداخلية للمجتمع، فانفق العلماء على بناء المدارس بسخاء فأصبحت دمشق وحلب والقاهرة مراكز إشعاع حضاري لا تقل ألقاً عن بغداد وبقية حواضر العالم الإسلامي.

ويعد الفقيه الواعظ شرف الإسلام عبدالوهاب بن عبدالواحد بن محمد الحنبلي (ت 536هـ/ 1141م). من العلماء الأوائل الذين ساهموا في بناء المدارس في بلاد الشام فبنى بدمشق المدرسة الحنبلية [29] والتي تقع داخل باب الفراديس [30]. وأوقف الفقيه الواعظ برهان الدين علي بن الحسن

(29) الذهبي: شمس الدين، العبر في خبر من غبر، تحقيق: صلاح الدين المنجد، (الكويت، 1966، 4/ 100)، تاريخ الإسلام مخطوط رقم 13، (بغداد، المجمع العلمي العراقي)، ق2، ج9 / 452.

(30) ابن رجب أبو الفرج، الذيل على طبقات الحنابلة، تحقيق: محمد حامد الفقي (القاهرة، 1953)، 200/1؛ أبي اليمن العليمي: مجير الدين، المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام احمد، ط 2، (القاهرة، 1965)، 250/2.

البلخي (ت 578هـ/ 1182م) المدرسة المعروفة بالبلخية [31]. وبنى الشيخ أبو سعد عبدالله بن أبي السري محمد بن هبة الله بن المطهر بن أبي عصرون (ت 585هـ/ 1189م) مدرسة بدمشق بالقرب من داره [32]. وأخرى بحلب في سويقة باب البريد [33]. والشيخ عز الدين عبدالهادي بن عبدالوهاب الحنبلي (ت 586هـ/ 1190م) الذي صاحب الأمير أسد الدين شيركوه [34] إلى مصر فقد شرع ببناء مدرسة فيها إلا ان المنية عاجلته قبل ان يتمها [35]. وبنى الشيخ نجم الدين الخبوشاني (ت 587هـ/ 1191م)في مصر المدرسة المعظمية وأوقف عليها وقوفا كثيرة وكان السلطان صلاح الدين قد أمده بالأموال[36].

(31) الذهبي: شمس الدين، دول الإسلام، تحقيق: فهيم محمد شلتوت ومحمد مصطفى، (القاهرة، 1974)، 64/2.

(32) أبو شامة: شهاب الدين، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، (بيروت، د.ت)، 150/2، ابن الشحنة: محب الدين، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، (دمشق، 1909)، ص 111.

(33) ابن خلكان، أبو العباس، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت، 1977)، 55/3؛ ابن كثير: البداية، 12/ 333.

(34) الملك المنصور أبو الحارث بن شادي، وشيركو تعني ملك الغابة، كان شجاعا، حارب الصليبيين وهو أحد قواد الملك العادل نور الدين محمود، وبتوجيه من الأخير تمكن أسد الدين من انتزاع مصر من الفاطميين سنة 564هـ بعد صراع يطول شرحه، توفي في العام نفسه، الحنبلي: احمد، شفاء القلوب من مناقب بني أيوب، تحقيق: ناظم رشيد، (بغداد، 1979)، ص 25-43.

(35) ابن العماد: شذرات، 4/ 286.

(36) الأصفهاني: عماد الدين، الفتح القسي في الفتح القدسي، (القاهرة، د،ت)، ص 297؛ الحموي: أبو الفضل، التاريخ المنصوري المسمى (تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان)، ووضع فهارس بطرس غريانيوج، (موسكو، 1960)، 1/ 211.

أما القاضي علي بن عبدالرحيم المعروف بالفاضل (ت 569هـ/ 1199م) فقد بنى في سنة 580هـ/ 1184م مدرسة بدرب ملوخية بالقاهرة [37]. وهي أول مدرسة بمصر لتدريس المذهبين الشافعي والمالكي[38] مفتتحا التدريس فيها يوم السبت من العام نفسه[39].وبنى الشيخ صدر الدين بن حمويه (ت 617هـ/ 1120م) مدرسة بدمشق لتدريس المذهب الشافعي [40] في حين بنى الشيخ أبو عمر محمد بن احمد بن محمد بن قدامى المقدسي (ت 607هـ/ 1210م) مدرسة بسفح قاسيون بدمشق لتدريس القرآن للفقراء ومستنسخا عدداً من الصحف بخط يده [41] اما الشيخ صفي الدين عبدالله بن علي بن الحسين بن شكر (ت 622هـ/ 1225م) فبنى بالقرب من داره في القاهرة مدرسة بتدريس المذهب المالكي [42]. وأنشأ القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع بن شداد (ت 632هـ / 1234 م) بحلب المدرسة الصاحبية[43] وتقع بالقرب من باب

(37) ابن خلكان: وفيات، 3/ 162.

(38) ابن كثير: البداية، 24/13؛ ابن العماد: شذرات، 4/ 327.

(39) ابن خلكان: نفسه.

(40) ابن تغرى بردي: جمال الدين، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (القاهرة، د.ت)، 116/6.

(41) أبو شامة: شهاب الدين، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، ط 2، (بيروت، 1974)، ص 71؛ ابن كثير: البداية، 58/13-59.

(42) المنذري : التكملة، م 234/5؛ الكتبي: محمد، فوات الوفيات، تحقيق: محمد محي الدين، (القاهرة، 1951)، 2/ 463.

(43) ابن الشحنة: محب الدين، الدار المنتخب في تاريخ مملكة حلب، (دمشق، 1909)، ص 122، ابن تغري بردي: النجوم، 49/6.

العراق[44] قبالة المدرسة التي بناها العادل نور الدين محمود[45].

وللشيخ الحافظ ضياء الدين محمد بن عبدالواحد السعدي (ت 643هـ/ 1245م) بدمشق مدرسة بناها بالقرب من الجامع المظفري [46] أعانه على بنائها أهل البر وأوقف لها كتبه ومؤلفاته [47] في حين بنى الشيخ شرف الدين عبدالرحمن بن أبي صالح الملقب بابن العجمي بحلب المدرسة الشرقية، أنفق على بنائها اكثر من أربعمئة ألف درهم وأوقف عليها أوقافا جليلة [48]. لم تشر المصادر التاريخية إلى طبيعة تلك الأوقاف والمرجح ان الوثائق التي تتضمن شروط الوقف قد فقدت خصوصا وان طبيعة العصر اتسمت بالاضطرابات السياسية والاجتماعية.

اما الشيخ نجم الدين أبو محمد عبدالله بن محمد البادرائي (ت 655هـ/ 1257م) فبنى بدمشق المدرسة التي عرفت بالبادرائية [49]. مفتتحا التدريس فيها بحضور الملك الناصر [50] وأكابر الأمراء والفقهاء [51]. وبنى بدمشق أيضا الشيخ صدر الدين اسعد بن المنجا بن بركات بن نوفل

---

(44) ابن خلكان: وفيات، 7/89-90، الذهبي: العبر، 5/ 132.

(45) نور الدين محمود بن عماد الزنكي، ولد سنة 511هـ وتولى حلب بعد مقتل والده سنة 541 عرف بتدينه ومحبته للعلم والعلماء وله صولات معروفة ضد الصليبيين توفي سنة 569هـ. حول هذه الشخصية ينظر: سبط: مرآة، م8 ج316/1، 245، عماد الدين خليل: نور الدين، ص 132.

(46) الكتبي: فوات، 2/ 471- 472.

(47)المصدر والصفحات نفسها.

(48) ابن الشحنة، الدر، ص 112.

(49) السبكي: طبقات، 59/5، ابن العماد، شذرات، 5/ 369.

(50) اليونيني "قطب الدين"، ذيل مرآة الزمان، الدكن (الدكن، 1954)، 2/ 142.

(51) نفسه.

التنوخي (ت 657هـ/ 1285م) مدرسة بدرب الريحان قبالة الجامع الأموي بتدريس المذهب الحنبلي عرفة بالمدرسة الصادرية[52].

وأولى العلماء المسلمون اهتماما لعلم الحديث فأنشأوا الدور الخاصة به وكان في طليعة العلماء الذين أنشأوا هذه الدور القاضي الفاضل حيث بنى دارا للحديث بمصر عرفت بدار الحديث الفاضلة [53]. والقاضي بهاء الدين بن شداد الذي شيد بحلب داراً للحديث قبالة المدرسة التي أنشأها الملك العادل نور الدين محمود قبالة باب العراق [54]، والشيخ أبو المجاهد إسماعيل بن حامد بن عبدالرحمن القوصي (ت 653هـ/ 1255م) الذي أوقف داره بمصر لتكون دارا للحديث[55].

وللمؤسسات المدنية التي عُنيت بصحة الإنسان والمجتمع نصيب وافر من اهتمامات العلماء المسلمين تلك المؤسسات التي ساهمت في نشر الوعي الصحي من خلال معالجة المرضى وتعليم الطب فأنشأوا لهذا الغرض المستشفيات والتي كانت تعرف في تلك الحقبة بالبيمارستانات.

فأوقف الشيخ مهذب الدين عبدالرحيم (ت 628هـ/ 1230م) قبيل سفره إلى مصر سنة 622هـ/ 225م لخدمة الملك الأشراف بن الملك العادل [56] داره

(52) ابن كثير: البداية، 13 / 216.

(53) العريني: السيد: الشرق الأدنى في العصور الوسطى، (بيروت، 1967)، ص 222.

(54) ابن خلكان: وفيات، 7/89-90، الذهبي: العبر، 5/ 132.

(55) الذهبي: العبر، 5/ 224.

(56) الأشراف موسى بن الملك العادل أبي بكر. ولد بالقاهرة سنة 576هـ وولاه والده عدة مدن مثل الرها وحران وخلاط كان حسن السيرة ومحباً للعلماء توفي سنة 635هـ بدمشق، ابن خلكان: وفيات، 5/230-334؛ الذهبي: دول، 2/138-139.

التي بدمشق عند درب الصاغة العتيقة [57]، شرق سوق المناخلين مدرسة لتدريس الطب وأوقف لها ضياعا وعدة مساكن لتدبير شؤونها ومصالح المشتغلين فيها [58] كما أوصى ان يتولى التدريس فيها الشيخ الطبيب شرف الدين علي بن عبدالرحيم[59].

في حين أنشأ الطبيب محمد بن أبي الوحش المعروف بابن أبي حليقة المدرسة المذهبية لتدريس الطب [60]. بينما أقدم قاضي بعلبك بدر الدين المظفر بن مجيد الدين بن عبد الرحمن (ت 645هـ/ 1247م) على شراء مجموعة من الدور المجاورة للبيمارستان الكبير الذي أنشأه الملك العادل نور الدين محمود وأضافها للبيمراستان لغرض توسيعه [61]. وقيامه أيضا بتوسيع القاعات التي تؤوي المرضى وأجرى لها الماء [62]. وأوقف الشيخ علاء الدين بن أبي الحرم القرشي المعروف بابن النفيس (ت 687هـ/ 1288م) داره وأملاكه على البيمارستان المنصوري في القاهرة[63].

---

(57) ابن كثير: البداية، 13/ 130، الكتبي: فوات، 1/563-564.

(58) اليافعي: أبو محمد: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، ط 2، (بيروت، 1970)، 4/65.

(59) نفسه.

(60) احمد: بدوي، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية، (القاهرة، د، ت)، ص 53.

(61) ابن أبي أصيبعة: احمد، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، (بيروت، 1965)، ص 751.

(62) نفسه.

(63) ابن تغري بردي النجوم، 7/ 377؛ العمري خير الله، الدار المكنون، مخطوطة رقم 738، (المجمع العلمي العراقي، بغداد)، ص 298.

فضلا عن ذلك فقد خصص العديد من العلماء بعضا من ممتلكاتهم لأغراض أخرى خدمة للصالح العام. فقد أوقف القاضي الفاضل جزءً كبيرا من ممتلكاته على فكاك الأسرى المسلمين لدى الصليبيين. لعل من أبرزها خان يدر عليه ريع عظيم وكذلك الدار المشهورة بصناعة التمر والتي تضم مجموعة من المخازن والقاعات مع ساحة للتبضع [64]. وقيامه أيضا ببناء زريبة أتم بناءَها من مال الوقف [65] وتجديد عمارة العين التي تجري من خارج المدينة [66]. وقيام الشيخ عبدالرزاق المحتسب بحفر قناة بحارة الخاطب بدمشق [67] بينما أشار الشيخ زين الدين علي بن نجا حماما قبالة باب زويلة بالقاهرة [68] أما الشيخ أبو عمر القدسي فقد حفر بئراً أمام الجامع الذي بناه بقاسيون بدمشق[69].

ولم تقتصر الأعمال الخيرية للعلماء المسلمين على بناء أو وقف ممتلكاتهم على المؤسسات التي تعود بالنفع على الصالح العام، وإنما شمل أيضا الأشراف على بناء المؤسسات الوقفية أو تطويرها سواء كان ذلك بمبادرة منهم أو بتكليف من الملوك والأمراء والوزراء والأعيان. ففي سنة 516هـ/ 1222م أو كل الوزراء

(64) المقريزي: خطط م11/3.

(65) نفسه.

(66) ابن الزيات: شمس الدين، الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة، (بغداد، د.ت)، ص 310.

(67) ابن عبدالهادي: ثمار، ص 67.

(68) أبو شامة: الروضتين، 2/ 21.

(69) ابن كثير: البداية، 13/ 32.

الفاطمي المأمون البطيحي [70] إلى الشيخ أبي البركات محمد بن عثمان عمارة المساجد السبعة التي تقع بين الجبل والقرافة بمصر وأولها مشهد السيدة زينب وآخرها مشهد السيدة أم كلثوم لإصلاح ما تهدم منها، وجعل على كل مشهد لوحا من الرخام عليه اسمه وتاريخ تجديده[71].

وأوكل الملك العادل نور الدين محمود إلى القاضي كمال الدين الشهرزوري (ت 569هـ/ 1173م) مهمة تجديد الجامع الأموي بدمشق بعد الحريق الذي تعرض له سنة 471هـ/ 1078م قام الشهرزوري بفتح المشاهد الأربعة [72] كما وأضاف إلى أوقاف الجامع المعلومة الأوقاف التي لا تعرف شروط واقفيها وسماها مال المصالح ورتب عليها لذوي الحاجات من الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام [73]. وكذلك تعمير البيمارستان النوري بدمشق[74].

بينما عهد السلطان صلاح الدين في سنة 572هـ/ 1176م بمهمة بناء البيمارستان في القصر بالقاهرة إلى الفقيه نجم الدين الخبوشاني [75]. وعهد السلطان أيضا بعد فتح بيت المقدس سنة 583هـ/ 187م إلى القاضي

(70) كان شجاعا حازما تولى وزارة مصر واستبد برأيه وتلقب بالمأمون توفي سنة 530هـ. ابن خلكان: وفيات، 7/ 16-17.

(71) ابن ميسر: أبو عبدالله، أخبار مصر، اعتنى بتصحيحه هنري ماسيه، (القاهرة، 1919)، 62/2.

(72) ابن قاضي شهبة: بدر الدين، الكواكب الذرية في السيرة النورية، (تاريخ السلطان نور الدين محمود)، تحقيق: محمود زايد، ط1، (بيروت، 1971)، ص 27.

(73) نفسه.

(74) ابن طولون: شمس الدين، قضاة دمشق: تحقيق: صلاح الدين المنجد، (دمشق، 1956)، ص 47.

(75) ابن خلكان: وفيات، 240/4. ابن تغري بردي: النجوم، 6/ 46 ـ 49.

بهاء الدين بن شداد عمارة البيمارستان في القدس [76]. وأوكلت إلى القاضي عبدالجبار بن أبي الحجاج يوسف بن عبدالجبار الصويتي (ت 583هـ/ 1187م) مهمة القيام بتعمير مسجد آسيا بظاهر مصر[77].

بينما عهد إلى الشيخ صفي الدين عبدالله بن علي بن الحسين بن شكر مهمة بناء مصلى العيد بجامع دمشق وتبليط أرضيته وعمل الفوارة [78] وكذلك تعمير جامعي المرة وحرستا بدمشق[79]. واسند الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل بن الملك العادل[80] إلى الفقيه عز الدين بن عبدالسلام (ت 660هـ) عمارة المساجد المهجورة بمصر والقاهرة[81].

وفضلاً عن ذلك فقد سعى بعض العلماء في حث الملوك والأمراء على الاهتمام بالأوقاف التي تعرضت لظروف معينة فوجب صيانتها. ففي سنة 569هـ/ 1173م وأثناء استقبال العماد الأصفهاني الملك العادل نورالدين محمود في

(76) ابن تغري بردي: النجوم، 46/6-49.

(77) المنذري: التكملة، م107/1.

(78) نفسه، م234/5.

(79) نفسه.

(80) الملك الصالح أيوب بن محمد بن أبي بكر ولد بالقاهرة سنة 602هـ ونشأ بها ثم إستنابه والده عليها سنة 625هـ ثم تغير عليه وقرب أخاه العادل. وبعد مناورات سياسية يطول شرحها تمكن أيوب من ازاحة أخيه العادل عن الحكم سنة 637هـ واستمر بحكم مصر حتى وفاته سنة 647هـ في المنصورة وهو في قبالة الصليبيين. الحنبلي: شفاء، ص 367-382.

(81) السبكي: طبقات، 101/5.

مدرسته، خاطبه الأصفهاني بالقول ان الموضع قد تشرف اما ترى انه من أيام الزلزلة قد تشعث فأجابه: نعيده إلى العمارة[82].

(82) الأصفهاني: عماد الدين سنا البرق الشامي، اختصره الفتح بن علي البنداري، تحقيق: رمضان ششن، ط1، (بيروت، 1971)، ق145/1، أبو شامة: الروضتين، 1/ 218.

Abstract

Dr. Soltan G. S. [*]

Muslim scholars effors in sopporting the civil socility's foundations in the crusadera

The reseach exmines the ulma's efforts in backing up the civil institutions during the crusadere era, according to their influencial role in this period as leading cast.

(*) College of Arts / University of Mosul.